المحاضرة السابعة

المحور الثالث: الفكر الاقتصادي الأوروبي الحديث

ثالثا: الفكر الكلاسيكي (المدرسة الكلاسيكية Classical School). ظهرت المدرسة الكلاسيكية خلال الفترة (1776- 1871) –مرحلة الرأسمالية الصناعية- وهي فترة إعلان الثورة الصناعية في انجلترا، والتي تعني "الانتقال من الصناعة اليدوية إلى الصناعة الآلية عن طريق تحولات كيفية في فنون الإنتاج وطرق تنظيمه بالانتقال إلى نظام المصانع القائم على التقسيم الفني للعمل" مما أدى إلى بلورة علاقات الإنتاج في المجتمع الرأسمالي، أين يتركز الإنتاج الصناعي في عدد من المصانع التي يمتلكها أصحاب رؤوس الأموال، وتجمع كل منها عددا كبيرا من العمال يقومون بالإنتاج. وأدى نظام المصانع إلى زيادة نفوذ أصحاب رؤوس الأموال وسيطرتهم على معظم عوامل الإنتاج. كما أدى هذا التحول إلى خلق طبقة جديدة وهي طبقة المديرين لإدارة المشروعات فبدأت المشاريع في التوسع من أجل زيادة الأرباح.

صاحب هذه التطورات تطور في الفكر الاقتصادي، حيث غلب على هذه المرحلة مذهب حرية التجارة وحياد المالية العامة على الفكر الاقتصادي، بحيث كان تدخل الدولة محدودا في المجالات الاقتصادية. فالدولة بشكل عام دولة حارسة تؤمن الدفاع الأمن والعدالة، والسوق هو الذي يقوم بالدور الاقتصادي الرئيسي. وهكذا ظهرت المدرسة الكلاسيكية، والتي يعتبر (Adam Smith) المؤسس الحقيقي لها–ولد في عام 1723 في اسكتلندا، التحق بالجامعة في سن صغيرة حيث توجه إلى غلاسكو ودرس فيها ثم غادرها عام 1740 متوجها إلى جامعة أكسفورد في منحة دراسية، وابتداءً من عام 1748 أصبح محاضرا في جامعة غلاسكو فدرّس المنطق ثم الفلسفة الأخلاقية. وفي عام 1759 نشر كتابه الأول بعنوان "نظرية المشاعر الأخلاقية". في عام 1764 قام (Smith) بجولته الأوروبية التي شملت جنيف وباريس حيث التقى (François Quesnay)، ثم عاد إلى انجلترا عام 1766، وخلال جولته كان يستعد لكتابة مؤلفه الشهير "ثروة الأمم" الذي نشر عام 1776- و يحتوي هذا المؤلف على أهم أفكار وآراء (Smith) حول مفهوم الثروة حيث أوضح أن الثروة تتكون من السلع الأساسية الناتجة عن العمليات الإنتاجية وليس من المعادن النفيسة، وفي تفسيره لنمو الثروة الوطنية تطرق إلى تقسيم العمل وأوضح بأنه يمكن لمجموعة من العمال أن يتخصصوا في إنتاج سلعة واحدة بحيث يتخصص كل فرد في أداء جزء من العملية الإنتاجية وبين أن ذلك من شأنه أن يؤدي إلى زيادة الإنتاجية. كما تناول أيضا في فصول أخرى من هذا الكتاب المال والقيمة، السوق والسعر الطبيعي، واختتمه بتناوله فئات التوزيع الثلاث: الأجور، الربح، الريع. ويعتبر هذا الكتاب نقطة تحول حقيقية في جعل الاقتصاد علم مستقل بين العلوم. كما أصبح المصدر

الرئيسي لإلهام الكثير من الكتاب الاقتصاديين الكلاسيك، الذين اعتمدوا عليه في وضع المبادئ الأساسية للنظام الاقتصادي الرأسمالي الذي يرتكز على الفرد في ممارسة النشاط الاقتصادي وعلى الملكية الخاصة وحافز الربح وعلى الحرية الاقتصادية التي تضمن المنافسة الحرة.

I- المبادئ العامة للمدرسة الكلاسيكية: تعتمد فلسفة هذه المدرسة على الأركان التالية:

1- الفرد هو الوحدة الأساسية للنشاط الاقتصادي، ويخضع في ذلك لدافع المصلحة الخاصة التي تمثل المحرك الأساسي لهذا النشاط.

2- اتجاه كل فرد في المجتمع إلى تحقيق مصلحته الخاصة يفضي إلى تحقيق مصلحة الجماعة. وبتعبير سميث "إن الفرد يجد نفسه مسوقا بيد خفية لتحقيق غاية لم يكن يقصدها قط". وتوحي المقولة بأن سميث يعتقد بالتوافق الطبيعي بين المصلحة الذاتية للفرد والمصلحة العامة للمجتمع أي (أن المصلحة العامة تتحقق بصورة تلقائية لو أن الفرد يمارس عمله بدافع من مصلحته الخاصة)

3- وجود قوانين طبيعية تحكم النشاط الاقتصادي، اعتقاد الكلاسيك بذلك ناتج عن تأثرهم بأفكار المدرسة الطبيعية. ولهذا فإن الكلاسيك لا يبيحون تدخل الدولة في الحياة الاقتصادية. ويعتبر سميث من أشد المدافعين عن الحرية الاقتصادية، ويرى أن تدخل الدولة الواسع النطاق في الحياة الاقتصادية لابد أن يعود بالضرر الكبير على المجتمع ولهذا أكّد أن أي نظام اقتصادي لا يرفع شعار الحرية الاقتصادية وعدم التدخل الحكومي لا بد أن يؤدي إلى الانتقاص من إمكانيات المجتمع للنمو والتطور والرفاهية. وميز سميث في كتابه ثروة الأمم بين ثلاثة أنواع رئيسية من وظائف الدولة والتي برأيه يجب على الدولة أن يقتصر دورها على هذه الأنواع الثلاثة فقط وهي:

- الدفاع الخارجي ضد العدو؛
- إدارة القانون والعدالة وحماية الأفراد والحفاظ على الحقوق والملكية الفردية؛
- إنشاء المشاريع العامة التي لا يمكن أن يكون من صالح أي فرد أو مجموعة من الأفراد القيام بإنشائها والحفاظ عليها مثل الكنائس، المدارس، الستشفيات؛

4- دعم النظام الرأسمالي: أخذ الكلاسيك بالنظام الرأسمالي . والنظام الرأسمالي من وجهة نظرهم أفضل الأنظمة الاقتصادية وحجتهم في ذلك:

- أنه نظام طبيعي يستجيب للخصائص الطبيعية للنفس البشرية التي تفضل الحرية وتسعى وراء تحقيق المصلحة الذاتية وتحب التملك؛
- يتحدد الإنتاج فيه وفقا لرغبات المستهلكين بفضل جهاز الثمن (السوق)؛
- المنافسة فيما بين المنتجين التي تضمنها الحرية الاقتصادية تؤدي إلى تنمية الجهاز الإنتاجي وإلى تخفيض تكاليف الإنتاج وتحسين نوعية السلع وزيادة عرضها، مما يخفض من أسعارها فتزيد بذلك الرفاهية الاقتصادية لجميع أفراد المجتمع؛

5- جوهر الاقتصاد الكلاسيكي هو قانون ساي (المنافذ)، حيث إن العرض يخلق الطلب المساوي له.

6- كما ساد اعتقاد لدى الكلاسيك أن النظام الاقتصادي الرأسمالي يعمل بشكل تلقائي ويصحح نفسه بنفسه، فالمرونة في كل من الأسعار والأجور والفائدة سوف تعمل على تحقيق التوازن، وبالتالي فإن كل من ظاهرة البطالة والإنتاج الزائد عبارة عن ظروف مؤقتة.

II- التحليل الاقتصادي في الفكر الكلاسيكي: اشتمل التحليل الاقتصادي للمدرسة الكلاسيكية على مجموعة من النظريات الاقتصادية المختلفة. فيما يلي شرح موجز لأهم هذه النظريات:

1- **نظرية الإنتاج وثروة الأمم:** إذا كانت الثروة عند التجاريين تأتي من التجارة الخارجية على وجه الخصوص، وتأتي من النشاط الزراعي عند الطبيعيين على وجه الخصوص، كذلك فإن العمل هو مصدر كل نشاط اقتصادي عند الكلاسيك، حيث يقول آدم سميث" إن العمل السنوي الذي يقوم به كل شعب هو الرصيد الذي يمده بكافة ضروريات الحياة وكمالياتها مما يستهلكه كل سنة". ولكن آدم سميث ميز بين نوعين من العمل: عمل منتج وعمل غير منتج، والعمل المنتج حسب رأيه هو كل عمل نحصل من ورائه على أشياء مادية وملموسة. والاختلاف مع الفيزيوقراط أنه ضم القطاع الصناعي إلى جانب القطاع الزراعي. والثروة بالنسبة إليه كل المنتجات المادية الملموسة التي تعمل على إشباع الحاجة والقابلة للتجديد ومصدرها العمل المنتج. وبذلك يؤكد على الفكرة القائلة أن الثروة لا تنتج إلا في مجال الإنتاج المادي والتجارة والخدمات قطاعات لا تضيف شيئا للثروة.

لكن الكلاسيك الذي جاؤوا بعده رجعوا عن هذا المفهوم واعترفوا بان الخدمة من النشاطات المنتجة وعرفوا الإنتاج على أنه خلق المنافع وزيادتها. والثروة عندهم هي إنتاج السلع والخدمات، والعمل البشري هو المصدر الرئيسي لهذه الثروة.

وقد اهتم الكلاسيك في نظرية الإنتاج بناحيتين:

أ- **ظاهرة تقسيم العمل:** يرى الكلاسيك وعلى رأسهم آدم سميث أن الزيادة في الثروة تتحقق من خلال الزيادة في إنتاجية العمل، وأن تقسيم العمل هو الوسيلة الرئيسية لزيادة إنتاجية العمل وبالتالي زيادة الثروة. وتقسيم العمل عند سميث يعني تقسيم عملية إنتاج أي سلعة إلى عمليات جزئية يتخصص كل فرد في مجموعة العمل في أداء عملية واحدة من هذه العمليات الجزئية المتتابعة مما يؤدي إلى: زيادة الإنتاجية؛ توفير الوقت؛ اختصار جهد العامل؛ إدخال تحسينات فنية في عملية الإنتاج والتحفيز على الابتكار والاختراع. ومن ثمّ زيادة كبيرة في الإنتاج وتحسين نوعيته.

وفيمايلي فكرة أدم سميث كما اوردها حول اثر تقسيم العمل في زيادة الانتاجية:

يقول آدم سميث: " إن العامل الذي لم يعد الاعداد اللازم لهذا العمل الذي جهله تقسيم العمل صناعة بذاتها ولم يألف استخدام الآلات التي تستخدم في هذع الصناعة قد لا يمكنه ان ينتج أكثر من دبوس واحد في اليوم، ولكنه بعد فترة من المران والتدريب يستطيع ان ينتج اكثر من عشرين دبوسا في أحسن

الظروف. ولكن هذه الصناعة لم تعد صناعة واحدة وإنما تفرعت ألى صناعات عديدة يكاد بعضها أن يكون صناعات مستقلة قائمة بذاتهان فهناك عمال يختصون بعملية سبك الاسلاك، وآخرون يمدونها مستقيمة، وغيرهم يقومون بتقطيعها، وفريق رابع بسن اطرافها وخامس بوضع رؤوسها، وهذه العملية وحدها تنقسم إلى عمليات متفرقة، وفريق سادس يقوم بلفها في الورق ووضعها في الصناديق، وهكذا حتى صارت صناعة الدبابيس موزعة على ثماني عشر عملية مختلفة يقوم بكل واحدة منها فريق متخصص من العمال". ويقول ايضا "...ولقد اتيحت الفرصة لمشاهدة مصنع صغير يستخدم عشرة عمال يقوم بعضهم بأكثر من عملية واحدة في هذه الصناعة، وبالرغم من أن هذا المصنع لم يستخدم سوى الآلات اللازمة جدا إلا انه كان في امكانه ان ينتح ثمانية واربعون الف دبوس في اليوم إذا اشتغل العمال بجد ونشاط، هذا بينما لايستطيع عشرة عمال غير مدربين ولا مؤهلين لهذه الصناعة ان ينتجوا اذا ما اشتغل كل منهم على حده اكثر من مائتي دبوس في اليوم في احسن الاحوال ولا اكثر من عشرة دبابيس في اسوء الظروف."

هكذا يتضح من الفقرتين السابقتين محاولة آدم سميث تبيان اثر تقسيم العمل، فبدون تخصص وبدون تعاون فقد لا ينتج العامل اكثر من دبوس واحد في اليوم، ولكن بعد التخصص عن طريق التدريب فإن هذا العامل قد يضاعف انتاجه الى عشرين دبوسا، ومن ثم عشرة عمال يمكنهم انتاج مائتي دبوس ولكن عند ادخال تقسيم العمل في الصناعة ويصبح الكثير يتعاون في عملية انتاج واحدة فإن هذا يؤدي الى مضاعفة الانتاج لتبلغ أربعة ألاف وثمانمائة دبوس في اليوم للعامل الواحد أي ما يعادل ثمانية واربعين الف دبوس لمجوع العشرة عمال المؤهلين والمدربين.

هذه المضاعة الكبيرة في الانتاج التي لاحظها آدم سميث في هذا المصنع تعود من وجهة نظره الى الاسباب التالية:

- زيادة مهارة العامل عند اقتصاره على القيام بمهمة انتاجية واحدة
- تركيز وقت العامل بكامله على مهمة انتاجية واحدة
- الابداع والابتكار الذي يتيحه تخصيص العمل نتيجة اعادة التجربة وتكرارها.

ب- **قانون تناقص الغلة:** يعود الفضل في اكتشاف هذا القانون إلى دافيد ريكاردو* و ينص هذا القانون على أنه إذا كان هناك عنصر ثابت من عناصر الإنتاج (الأرض مثلا) والعناصر الأخرى متغيرة (العمل ورأس المال) فإن تشغيل دفعات متتالية ومتساوية من هذه العناصر مع العنصر الثابت سيؤدي إلى تزايد كل من الناتج الكلي والناتج الحدي والناتج المتوسط في بادئ الآمر، وسيستمر في الارتفاع حتى بلوغ

* دافيد ريكاردو (1772-1823): اقتصادي وسياسي إنجليزي، يُعدّ من أبرز رموز المدرسة الكلاسيكية في الاقتصاد، وهو مؤلف أحد أهم الكتب في تاريخ الاقتصاد السياسي "مبادئ الاقتصاد السياسي والضرائب"، وصاحب عدة نظريات اقتصادية من أشهرها نظرية "الميزة النسبية" في مجال التجارة الدولية،تأثر ريكاردو بالأفكار الاقتصادية الليبرالية لآدم سميث بعد الاطلاع على كتاب "ثروة الأمم" كما ساهمت صحبته للاقتصاديين جيمس ميل وتوماس مالتوس اللذيْن عاصراه في تطوره الفكري. يعتبر ريكاردو اقتصاديا ليبراليا بجدارة ، ومدافعا عن حرية العمل والتجارة والتبادل الحر بين الأمم.

حد معين ثم تأخذ في النقصان. كان الكلاسيك يعتقدون أن هذا القانون ينطبق على الزراعة فقط، إلا أن الاقتصاديين المحدثين أثبتوا أن لهذا القانون صفة العمومية فهو ينطبق على التجارة والصناعة أيضا.

ويقوم هذا القانون على الفرضيات التالية:

* ثبات كمية أحد عناصر الانتاج وتغير كميات باقي العناصر المستخدمة في العملية الانتاجية،

*ثبات المستوى الفني المستخدم في العملية الانتاجية .

* التجانس التام في وحدات المستخدمة من عناصر الانتاج المتغيرة (عنصر العمل مثال) من حيث الكفاءة والمهارة.

*ينجز التحليل خلال الفترة القصيرة(المدى القصير :هو المدة من الزمن التي تكون قصيرة جدا بحيث أن الشركة لا تملك الوقت الكافي لكي تغير كمية كل المدخلات، وبالتالي فإن المدخلات يمكن تصنيفها إلى مدخلات ثابتة ومدخلات متغيرة في المدى القصير)

للتوضيح أكثر سوف نفترض أن هناك مشروع ينتج سلعة القمح، وأنه يستخدم عنصرين أساسيين من عناصر الانتاج، وهما عنصر الأرض وعنصر العمل، وسوف نفترض أن عنصر الارض ثابت أي أن مساحة الأرض المزروعة بالقمح (ولتكن 2 وحدات) وأن عنصر العمل هو العنصر المتغير بمعنى أن زيادة إنتاج القمح في المشروع من فترة لأخرى تتم عن طريق زيادة عدد العمال .

الناتج المتوسط : الناتج الكلي على عدد العمال

الناتج الحدي :هو التغير في الناتج الكلي بسبب التغير في عدد العمال بعامل واحد. (التغير في الناتج الكلي على التغير في عدد العمال). و من اجل اكثر إيضاح نورد الجدول التالي الذي يوضح قانون تناقص الغلة وما يحدث لكل من الانتاج الكلي، الناتج الحدي والناتج المتوسط نتيجة لزيادة عنصر العمل مع ثبات عنصر الأرض:

الأرض	العمل	الناتج الكلي	الناتج الحدي	الناتج المتوسط
2	1	8	8	8
2	2	20	12	10
2	3	36	16	12
2	4	60	24	15
2	5	90	30	18
2	6	108	18	18
2	7	112	4	16
2	8	112	0	14
2	9	108	4-	12
2	10	100	8-	10
2	11	88	12-	8

من الجدول السابق يتضح لنا ما يلي :الناتج الكلي: يتزايد كلما أضفنا وحده إضافية من عنصر العمل إلى أن وصل إلى أقصى مستوى له عند الوحدة الثامنة. وعند هذا المستوى يصبح الناتج الحدي مساويا للصفر، ثم يبدأ الناتج الكلي في التناقص عندما يصبح الناتج الحدي سالبا .

الناتج المتوسط: يتزايد إلى أن يصل إلى أعلى مستوى عند الوحدة السادسة، ثم يبدأ في الانخفاض إلى أنه ال يصل إلى الصفر ولا يأخذ قيمة سالبة .

الناتج الحدي :يتزايد إلى أن يصل إلى أعلى مستوى له عند الوحدة الخامسة، ثم يتناقص إلى أن يصل إلى الصفر، ثم يأخذ بعد ذلك يأخذ قيماً سالبة

مراحل الانتاج :تمر العملية الانتاجية بثالث مراحل :المرحلة الاولى: مرحلة تزايد الغلة :وفيها يتزايد الناتج الكلي بمعدلات متزايدة، كما أن الناتج الحدي يتزايد، والناتج المتوسط يتزايد (تنتهي عند العامل رقم6.)

المرحلة الثانية: مرحلة تناقص الغلة :وفيها يتزايد الناتج الكلي بمعدلات متناقصة حتى يصل الى أعلى كمية له، الناتج الحدي يكون متناقص حتى يصل الى الصفر، أما الناتج المتوسط فيتزايد في البداية ثم يتناقص، وتنهى المرحلة عند وصول الناتج الكلى إلى أقصاه (الناتج الحدي = صفر).

المرحلة الثالثة: مرحلة تناقص الناتج الكلي: وفيها يبدأ الناتج الكلي في التناقص، ويكون الناتج الحدي في هذه المرحلة سالب.

2-نظرية السكان: كان آدم سميث قد أعطى صورة جميلة ومتفائلة للمجتمع يسوده التجانس بفعل "يد خفية" تحركهم وتحفظ تماسك المجتمع. ولكن ذهب بعض الاقتصاديين الكلاسيك إلى الإعلان بأن المجتمع المثالي لا يعدو أن يكون سرابا، ومن هؤلاء الاقتصاديين روبرت مالتوس[**] ودافيد ريكادو، فقد ظهر في انجلترا الفقر والبؤس الناشئان عن الزيادة السريعة في السكان، وكان رأي مالتوس هو وجوب خفض حجم السكان حتى يتناسب مع مستوى المعيشة متأثرا بآراء بعض المذاهب التي تقول أن الثورة الصناعية لم تحقق للطبقة العاملة الخير كما تصور سميث.

ولقد أخذ الكلاسيك بنظرية مالتوس في السكان التي تعتمد على ثلاثة أسس:

أ- حجم السكان محكوم بكمية المواد الغذائية الموجودة؛

[**] روبرت مالتوس(1766-1834): اقتصادي وديمغرافي إنجليزي، درس التاريخ والاقتصاد السياسي وبحث في مجال علم السكان (الديمغرافيا) اشتهر مالتوس بنظريته المعروفة بـ"المالتوسية" نسبة إليه والتي حاولت تفسير ظاهرة تنامي الفقر ومشكلاته في العالم بتزايد أعداد السكان ونموها بمعدلات تفوق معدلات نمو المحاصيل الزراعية، مما سيؤدي الى اختلال التوازن. تأثر مالتوس بالفلسفة الليبرالية وكان واسع الاطلاع على أفكار المدرسة الكلاسيكية في الاقتصاد، حيث قرأ كتابات آدم سميث وكان على صحبة مع ديفد ريكاردو. ألف كتابه "مقالة حول مبدأ السكان" عام 1798، وله مؤلف آخر بعنوان "مبادئ الاقتصاد السياسي" نشر سنة 1820.

ب–تزايد السكان بدرجة تفوق درجة الزيادة في المواد الغذائية، فالزيادة السكانية تتم وفق متوالية هندسية(2،4،8،16...) بينما تتم الزيادة في المواد الغذائية بمتوالية حسابية(1،2،3،4...) ونتيجة لذلك يحدث اختلال بين التزايد في المواد الغذائية والتزايد السكاني؛

ج– هذا الاختلال في التوازن لا يمكن أن يستمر لأن الطبيعة بنفسها لا تسمح بذلك، إذ أنها ستوجد الموانع (الأوبئة، المجاعات، الحروب..) التي تغير هذا الاختلال وتعيد التوازن.